Journal of Translation and Languages مجلة الترجمة واللغات
ISSN : 1112-3974

صور المخالفة الصوتية في سورة الكهف

دالي صباح
جامعة وهران –الجزائر
dalisabah@yahoo.fr

Abstract: *Dissimilation is one of the reasons for the occurrence of the substitution, and one of its kinds. Besides, it is a term that modern linguists have given to the substitution of one of the two combined letters, and it intends to reduce the pronunciation of the two sounds with another one of those sounds that do not require effort. This is possible in the light of the phenomenon to explain many of the factors of substitution and exaltation that floated on the surfaces of some linguistic units. The present paper aims at highlighting pictures of these models from Surat Al-Kahf with their analysis and explanation. Harmony between sounds is achieved by replacing some phonemes thus achieving the required facilitation. Elision is another technique used in order to escape from the weight of the meeting of two dissonant voices, and as a result of the tendency of the Arabic tongue towards facilitation and economy of muscular effort.*
Keywords : *Dissimilation, deletion, phraseological units, substitution.*
الملخص: المخالفة سبب من أسباب حدوث الإبدال، وضرب من ضروبه، وهي مصطلح أطلقه علماء اللّغة المحدثون على إبدال أحد الحرفين المثلين المجتمعين، وهي تعمد إلى التخفيف من النطق بالصوتين صوتا آخر من تلك الأصوات التي لا تتطلب مجهودا، ويمكن في ضوء الظّاهرة تفسير الكثير من عوامل الإبدال والإعلال التي تطفوا على سطوح بعض الوحدات اللغوية، وأبرز الباحث صورا من هذه النّماذج من سّورة الكهف مع تحليلها وتعليلها.
الكلمات المفتاحية: المخالفة، الحذف، الإبدال، الوحدات اللغوية.

المخالفة: (Dissimilation)

المخالفة سبب من أسباب حدوث الإبدال، وضرب من ضروبه، وهي مصطلح أطلقه علماء اللّغة المحدثون على ما سمّاه القدماء "بإبدال أحد الحرفين المثلين إذا اجتمعا"[1] و "بكراهية اجتماع المتجانسين"[2]، لكن رغم هذا الاختلاف في التسميات بين القدماء والمحدثون يبقى المعنى واحد بينهما، وإن كان المصطلح الحديث أكثر دقّة ووضوحا، والمخالفة لغة من خَلَفَ. والخاء واللاّم والفاء أصول ثلاثة في اللغة العربية، أحدهما: أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه،

[1] - ينظر أدب الكاتب لابن قتيبة: 376، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة – لبنان.
[2] - شرح المفصل: 153/10.

والثاني: خلاف قدّام، والثّالث: التّغيير[3]. والخلف كذلك يجيء بمعنى البدل[4]. أمّا اصطلاحا فهي دعوة صوتين متماثلين إلى التّخالف والتّباعد قصد تخفيف النطق وتمهيله، لأنّ النّطق بالمتماثلين ثقيل، وغالبا ما يخالف بالصوائت الطّوال والصّوامت المانعة (ل، ر، م، ن)[5].

فقانون المخالفة إذا يقتضيه اجتماع المثلين لثقل النّطق بهما معا، خاصة إذا كان الصّوت الأول متحركا، والثّاني ساكنا فيعمدون إلى إبدال أحدهما من باب الاستخفاف، وكراهية التضعيف، فإمّا أن يخالف بصوت من أصوات العلّة ممّا يدفع إلى القول من أنّ المخالفة مظهر من مظاهر الإعلال. وإمّا أن يخالف بالأصوات الصّحيحة السّهلة النّطق كالأصوات المائعة.

وبصيغة أخرى نجد المخالفة ضدّ المماثلة، أمّا القانون الذي يحمها فيعمد إلى التخفيف من النطق بالصوتين صوتا آخر من تلك الأصوات التي لا تتطلب مجهودا[6].

فلابد في هذه الحالة من التصرف في أحد المتماثلين أو المتقاربين لإزالة ثقل لفظ التماثل أو تعذره، فهي بذلك تعاكس الضرب الأول الذي تحدثنا عليه أعلاه، أي أنّ المماثلة تنحو إلى الاتّصال أو بمعنى آخر إلى تقريب الأصوات المتنافرة أو المتباعدة بعضها من بعض، في حين أن هذه الظّاهرة تنحو إلى الانفصال والمباعدة بين الأصوات المتماثلة.

وقد يبدو في الأمر بعض من التناقض، إذا كيف يكون النّزوح نحو التّماثل استخفافا ثم يكون الهروب من التّماثل استخفاف أيضا؟ و الحق أنّه لا تناقض في هذا الأمر، إذ أنّ ثمّة نوعين مختلفين من الاستثقال أحدهما ناتج من تأليف الأصوات المتنافرة أو المتباعدة مخرجا أو صفة، و الثاني ناتج عن تكرار الصّوت نفسه مرّة أو أكثر، و تختلف درجة الثّقل في كل نوع و قد عالجت اللّغة العربية كلّ نوع من النّوعين بشكل يناسب درجة ثقله، و لعلّه من الواضح أنّ اجتماع الأصوات المتنافرة أكثر استثقالا من اجتماع الأمثال، و لهذا فقد تصرفت اللغة في كلّ حالات التّنافر، في حين أنّها لم تتصرف إلاّ في بعض صور التّماثل، "يتّضح ذلك إذا قارنّا مظاهر الإبدال التي حدثت لتقريب الأصوات بتلك التي حدثت لمخالفتها، إذ نرى أنّ أغلب مظاهر التقريب لازمة

[3] - ينظر مقاييس اللغة مادّة (خلف).

[4] - ينظر اللسان مادّة (خلف).

[5] - ينظر التطور اللغوي: 57، والأصوات اللغوية: 212.

[6] - ينظر بحوث ومقالات في اللغة: 55.

و واجبة، و لم يتكلم في الأصل المبدل منه في أكثرها، في حين أنّ مظاهر المخالفة أكثرها جازت و قليل منها واجب و لازم"[7].

وينعتها بعض اللّغويون "بالقوة السّالبة في الميدان اللّغوي، لأنّها تنزح إلى تخفيض حدّة الخلافات بين الأصوات"[8].

ويؤكد بعضهم أيضا أنّ أكثر اللغات تعتمد تحقيق ظاهرة المخالفة في الأصوات الأنفية والترددية، تيسيرا للنّطق وتحقيقا لحالة الانسجام في التيار الكلامي، ويمكن في ضوء الظّاهرة تفسير الكثير من عوامل الإبدال والإعلال التي تطفوا على سطوح بعض الوحدات اللغوية[9].

ويعلّل بعض الدّارسين حركة ظاهرتي المماثلة والمخالفة في التطور اللّغوي بقوله إن المماثلة: "تهدف إلى تيسير جانب اللّفظ عن طريق تيسير النّطق ولا تلقي بالا إلى الجانب الدّلالي الذي قد يتأثر نتيجة تقارب أو تطابق الصّوتين. أمّا المخالفة فينظر إليها عكس ذلك، مع أنّها تهدف إلى تيسير جانب الدّلالة عن طريق المخالفة بين الأصوات، ولا تلقي بالا إلى العامل النطقي الذي يتأثر نتيجة تباعد أو تخالف الصّوتين"[10].

ويعرفها إبراهيم أنيس بقوله: "...وهي أنّ الكلمة قد تشتمل على صوتين متماثلين كلّ المماثلة أحدهما إلى صوت آخر لتتمّ المخالفة بين الصّوتين المتماثلين، وقد دلّت البحوث التي قام بها علماء الأصوات، أنّ ظاهرة المخالفة قد شاعت في كثير من اللغات السّامية"[11]. وممّا يلفت الانتباه أنّ ظاهرة المخالفة نادره بالنسبة للمماثلة[12]. وبالفعل فإنّنا لم نجد صورا كثيرة للمخالفة في السّورة.

[7] - ينظر الإبدال في اللغة العربية لمولاي عبد الحفيظ طالبي: 305 (رسالة ماجستير).

[8] - ينظر دراسة الصوت اللغوي: 330، والصوتيات: 120.

[9] - ينظر الأصوات اللغوية لعبد القادر عبد الجليل: 291.

[10] - ينظر دراسة الصوت اللغوي: 231.

[11]- ينظر الأصوات اللغوية: 211.

[12] - ينظر التطور النحوي: 35، ودراسة الصوت اللغوي: 230.

وممّا تجدر الإشارة إليه أن القدماء لاحظها في العربية حيث أوردها سيبويه في باب ما شذّ فأبدل مكان اللام ياء كراهية التضعيف وليس مطرد، ومثل لها بقولهم: تسرّيت وتضنيت وتقصّيت، وأصلها تسرّرت وتقصّصت[13].

ويذكر المبرّد أنّ التضعيف مستثقل لحركة اللّسان في عملية الرّفع والعودة وقد ضرب لنا أمثلة في ذلك: أمليت وأمللت وتسريت في تسررت، إذ يقول: "والدليل على هذا إنّما أبدل لاستثقال التضعيف قولك: "دينار وقيراط، والأصل دنّار وقرّاط، فأبدلت الياء المكسورة فلمّا فرقّت بين المضاعفين رجع الأصل، فقلت: دنانير وقراريط وقريريط[14].

ونبّه ابن جني أيضا على استثقالهم المثلين حتّى قلبوا أحدهما في نحو: أمليت وأصلها أمللت، وقولهم: "لا وربّيك لا أفعل" يريدون: لا وربّك لا أفعل[15]. وقولهم في أمّا: أيما، وقرأه بعضهم: أيلا ولا ذمة في إلاّ ولا ذمّة[16]. وفي التنزيل الحكيم نقرأ: "ثم ذهب إلى أهله يتمطى"[17] والأصل يتمطّط. يقال: تمطّى فلان، أي تبختر.

والقدماء على هذا النّحو استثقلوا التّضعيف ورأوا في تحقيقه جهدا كثيرا فمالوا إلى الصّوت المضعّف بأحد الأصوات الصّائتة لسهولتها ويسرها في التّخفيف. ومن أمثلتها أيضا تشغّر -شنغير[18]، وتحدّس -تنحدس[19] اللّيل، والرّس، الرّمس[20] والعبّاس -العنباس[21]. والمخالفة لا تكاد تتمّ إلاّ حين يتجاوز صوتان من أصوات الإطباق، أو الأصوات الرّخوة على أنّ

[13] - ينظر الكتاب: 424/4.

[14] - ينظر المقتضب: 246/1.

[15] - ينظر الخصائص: 231/2.

[16]- ينظر المصدر نفسه: 65/2.

[17] - سورة القيامة: 33.

[18] - الشنغير: السيء الخلق.

[19] - تنحدس الليل إذا أظلم.

[20] - الرمس: الدفن.

[21] - والعنباس الأسد.

[22] - ينظر الأصوات اللغوية: 214.

المخالفة قد تكون في النّاذر من الحيان، بين الأصوات الشديدة الانفجارية، إجّار التي روي فيها إنجاز وكذلك إجاص التي روي فيها أيضا: انجاص[23].

ومن أمثلة المخالفة في العربية أيضا: قيراط ودينار بدلا من قرّاط ودنّار والدّليل على ذلك الجمع "قراريط ودنانير، ومن أمثلتها كذلك قولهم: خبخبوا[24] بدلا من خبّبوا بثلاث فأبدلوا من الباء الوسطى خاء ليفرقوا بين فعّل وفعلل[25].

وقد اضطر الصّرفيون أيضا إلى إقحام قانون المخالفة في بعض الكلمات وهي: وواصل وواق وولى، فقاموا بقلب الواو همزة إذا تصدّرت قبل واو المتحركة مطلقا، أو ساكنة متأصلة الواوية. فقالوا فيها: أواصل وأواق وأولى[26].

ومن المخالفة ما يحدث بين (الحركات) الصّوائت، كالمخالفة بين حركتي الفتح المتتاليين إذا كانت الأولى منها طويلة، فتتحول الثانية إلى كسرة مثل: أحوذيين، فالأصل في نون المثنّى هو الفتح، والدّليل على فتحها أنّها لا تزال مفتوحة في نظيرتها في جمع المذكّر، وكذا في بعض الأمثلة التي بقيت على أصلها القديم، وهي ما يسمّيه أحد الدّارسين المحدثين بالرّكام اللّغوي مثل: شتّان[27] وهو تثنية شتّ والشتّ = المتفرق[28]. ومن المخالفة الصّوتية كذلك ما يصطلح عليه بالمخالفة الكميّة بين المقاطع الصّوتية فيقال "فيه" بدلا "فيهي" و "منه" بدلا من "منهو"[29]. فالصّورة الأولى: (ص ح ح+ص ح) والثانية (ص ح ح+ص ح ح) وأما الصورة الثانية فهي: (ص ح ص+ص ح) و (ص ح ص+ص ح ح).

والمخالفة تقدمية رجعية ويقصد وجود صورتين، ثمّ يؤثر الصّوت الأوّل على الثّاني، فيكون الصّوت الأوّل هو المؤثر، ويقصد بالرّجعية وجود صوتين متشابهين ثم يؤثر الصّوت

---

[23] - ينظر الأصوات اللغوية: 215.

[24] - ينظر اللسان مادة (خبب): تخبخب الحرّ سكن بعد فورته وخبخبوا عنكم من الظهيرة أبردوا.

[25]- ينظر التطور اللغوي: 63.

[26] - ينظر المرجع نفسه: 63.

[27] - ينظر المرجع نفسه: 66.

[28] - ينظر اللسان مادّة (شتت).

[29] - ينظر التطور اللغوي: 67.

الأوّل على الثاني، فيكون الصّوت الأوّل هو المؤثر، ويقصد بالتقدمية وجود صوتان متشابهان ثمّ يؤثر الصّوت الثاني على الصوت الأول. وتنقسم المخالفة التقدمية أو الرّجعية إلى متصلة، أي لا يتبع الصوت الأول بحركة، ومنفصلة أي يتبع الصوت الأوّل بحركة[30].

الإبدال

هنالك ظواهر صوتية تركيبية عديدة تعتري الصوت اللغوي، حيث مجاورته أو ائتلافه مع غيره في سياق ما، وظاهرة الإبدال عجّت بها كتب اللغة القديمة، لأنّ "من سنن العرب إبدال الحروف، وإقامة بعضها مكان بعض"[31]. والإبدال من حيث اللغة من أبدل الشيء من الشيء، وبدّله أي اتّخذ منه بدلا، وأدبل الشيء بغيره.... والأصل في الإبدال جعل شيء مكان آخر[32]. أمّا دلالته الاصطلاحية عند اللغويين فهي وضع صوت مكان صوت آخر، أو كما أشار ابن يعيش إلى هذا فقال: "الإبدال هو أن تقيم حرفا مقام حرف إمّا ضرورة وإمّا استحسانا"[33].

وهو ضربين صرفي ولغوي، يقول أحد اللغويين: "إبدال الحروف على ضربين: أحدهما بدل حرف من حرف لأجل الإدغام، الآخر بدل حرف من حرف لغير الإدغام، فبدل الإدغام كإبدالك من الباء الميم في قولك: اصحب مطرا، وكذلك الصاد من الزاي، في أوجز صابرا، وهكذا في الإدغام"[34].

أما المعنى اللغوي للإبدال الصرفي فهو إقامة "حرف مقام حرف آخر في موضعه، إما ضرورة وإما استحسانا أو صنعة"[35] بغير تسهيل اللفظ أو الوصول به إلى الهيئة التي يشيع مجيئه عليها، نحو: قام التي تنحدر من الأصل: قوم. وقد كان هذا الضّرب من الإبدال محط اهتمام الصرفيين والنحاة. وينقسم الإبدال الصّرفي إلى قسمين: قياسي يستند إلى قوانين وضوابط تحكمه، وعدد أصواته محدودة وهي الهمزة والألف والتّاء والذّال والصّاد والطّاء والميم

[30] - ينظر المدخل إلى علم اللغة: 82. والتطور النحوي: 34.

[31] - فقه اللغة للثعالبي: 452.

[32] - ينظر اللسان مادة (بدل)، والإبدال بالكسر التبادل، ينظر الإبدال والمعاقبة والنظائر:1.

[33]- شرح المفصل: 7/10.

[34] - الإيضاح: 243.

[35]- ينظر سر الصناعة: 69/1.

والهاء والواو والياء[36]، أما السماعي فأصواته هي: الهمزة والتاء والدال والزاي والطاء والميم والنون والهاء والياء[37].

بينما الإبدال اللغوي فدائرته أوسع لاشتماله على أصوات لا يشملها الضرب الأول، وهو يختلف عن الإبدال الصرفي، بحكم أنه غير مقيد بقواعد، فهو إقامة حرف مقام حرف مع الإبقاء على سائر أحرف الكلمة، ولا يكون الإبدال إبدالا حقا إلاّ إذا كان بين البدل والمبدل منه علاقة صوتية[38].

والإبدال اللغوي مصدره السماع والرواية، لأنه "يقتصر على النقل والسماع دون أن يكون قياسا يسمح للناطق بصوغ أمثلة جديدة في اللغة فالدراسة في مادته تقف عند حدود الجمع والوصف المقارنة والاستنتاج دون أن تتجاوز ذلك إلى قواعد قياسية إنشائية"[39].

والملاحظ في الدراسات اللغوية القديمة، أنّه كثيرا ما يلتبس الأمر بين مصطلحي الإبدال والقلب ويخلط بينهما، فالأول كما تقدم معناه إقامة صوت مكان صوت، أما القلب فالمراد به عند بعض اللغويين أحيانا ظاهرة القلب المكاني نحو: جذب وجبذ، وبكل[40] ولبك[41]. وهو في عرف البلاغيين قلب المعنى بتقديم بعض أجزاء الجملة، وتأخير بعضها الآخر، ومن اللغويين من توسع في استعمال مصطلح القلب، كما هي الحال عند سيبويه الذي يدلّ به في بعض الأحيان على القلب المكاني[42]، وهو في موضع آخر يستعمل مصطلح القلب بمعنى الإبدال من ذلك قوله: "كما لم يمنع في السّماليق قلب السّين صادا"[43].

والهدف من الإبدال التخفيف، وما هو في الواقع إلاّ لهجات وقعت على دلالات متفقة، ومختلفة من حيث البنية التركيبية، ولو بحرف من أجل التّباين. فالأصوات حين تتجاوز في

---

[36] - الإبدال في اللغة العربية:22.

[37] - الإبدال في اللغة العربية: 22.

[38] - ينظر القراءات القرآنية: 73.

[39] - ينظر المرجع نفسه: 73.

[40] - بكل ولبك بمعنى واحد والبكل: الخلط، ينظر اللسان مادة (بكل).

[41] - ينظر المزهر: 476/1.

[42] - ينظر الكتاب: 467/3.

[43] - ينظر نفسه: 133/4.

التركيب قد يكون تجاورها منسجما ومتناغما، وقد يكون بينها بعض التنافر، فليس كل صوت صالحا لأن يجاور كلّ صوت آخر في الكلمة[44]. فإذا وجد تنافر بين صوتين كان الإبدال أحد السبل إلى إزالته وإحلال الانسجام والتوافق محلّه.

وفي الشواهد التالية المنتقاة من السورة وقفة مع جوانب الصيغ اللغوية التي تبدل فيها هذه الأصوات. يقع الإبدال قياسا في الوزن الصرفي (افتعل) وشواهده تؤكد على أنّها أبدلت بقوة عامل المماثلة الصوتية "وقد تطرقنا لهذا سابقا"، إذ أنّ الأصوات تختلف في درجات تأثرها بما يجاورها من الأصوات في المخرج وكيفية الممر الهوائي حيث تتوزع الأصوات حسب تلك المواقع إلى أصوات انفجارية أو أصوات احتكاكية وأصوات مركبة، وأصوات مكررة وأصوات جانبية، وأصوات أنفية، وكذلك حسب طبيعة اهتزاز الأوتار الصوتية إلى أصوات مجهورة وأصوات مهموسة"[45].

فقد حدث الإبدال في الفعل (اطّلع) في قوله تعالى: "لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا"[46]، فالصيغة (اطّلع) أصلها: اطتلع على وزن افتعل. ولما جاور في هذه الصيغة صوت مطبق (الطّاء) صوتا منتفخا (التاء) ونحن على علم أنّ الإطباق هو ارتفاع مؤخر اللسان نحو آخر الحنك الأعلى وانطباقه عليه، مع تقعّر وتراجع إلى الوراء، ليكون حجرة رنين فينحصر الصوت ويخرج مفخما، أمّا الانفتاح فهو عكس الإطباق، إذ هو جري النفس لانفراج ظهر اللسان عند النطق بالصوت، وعدم انطباقه على الحنك الأعلى فالصفتان كما هو واضح متضادتان[47].

وعند تجاور الصوتان في الكلمة لم يجد الناطق بدّا من إبدال الصوت المنفتح صوتا مطبقا لتحقيق الانسجام بين الصوتين، ولم يحدث العكس، أي إبدال الصوت المطبق صوتا منفتحا "لأنّ الصوت الأضعف يرد إلى الأقوى ولا يرد الأقوى إلى الأضعف"[48]. والأقوى في هذا الحال هو الصوت المطبق لأن فيه فضلا على الإطباق استعلاء وتفخما، أما المنفتح فهو غالبا مستفل ومرقق. والذي حدث في هذه الصورة من الإبدال الذي أنا بصدد تحليله، إبدال تاء

---

[44] - ينظر المناهج: 131.

[45] - علم الصرف الصوتي لعبد القادر عبد الجليل: 428-429.

[46] - سورة الكهف: 18.

[47] - ينظر الأصوات اللغوية لعبد القادر عبد الجليل: 271.

[48] - الإبدال اللغوي: 290.

الافتعال طاء عندما تكون فاء الكلمة صوتا مطبقا، فاستثقل العرب هذا الأمر لصعوبة نطق صوتين متنافرين صعوبة تصل إلى حد التعذر، فأبدلوا من التاء صوتا من مخرجها يوافق تلك الأصوات في الصيغة في الإطباق والاستعلاء، وذلك الصوت هو الطاء فحصل الانسجام بين فاء الصيغة وتائها، وزال الاستثقال، وتحقق التيسير المطلوب. وقد علّل ابن يعيش إبدال تاء الافتعال طاء بقوله: "والعلة في هذا الإبدال أنّ هذه الحروف مستعلية فيها إطباق، والتاء حرف مهموس غير مستعل فكرهوا الإتيان بحرف بعد حرف يضاده وينافيه، فأبدلوا من التاء طاء لأنهما من مخرج واحد، ألا ترى أنه لولا الإطباق في الظاء لكانت دالا.... وهذا الإبدال وقع لازما فلا يتكلم بالأصل"[49].

نرى أنّ الانسجام بين الأصوات قد تحقق بإبدال التاء طاء فتحقق بالتالي التيسير المطلوب، غير أنّ العرب لم يكتفوا بهذا التيسير وطلبوا درجة أكبر، ذلك بإبدال تاء الافتعال صوتا من جنس ما قبلها. وفي كلمة (اطّلع) أدغمت الطّاء الأولى السّاكنة في الثّانية والإدغام ثاني مرحلة في هذه الصّيغة.

كما يكثر بوجه خاص إبدال الضّاد بالظّاء والتي هي الصوت المطبق القسيم للثاء المهموسة[50]. ولا بأس من إيراد بعض النّماذج من السّورة، رأيت ضرورة تحليلها وتعليلها، ومنها قوله تعالى: "ولئن رددت إلى ربي"[51]، فالشّاهد في هذه السّورة إبدال النّون راء، فالنّون صوت مجهور مائع مرقق ومستفل أغنّ، ينطق عندما يصل الهواء من الرّئتين محرّكا بالوترين الصّوتيين، ثمّ يتخذ مجراه في الحلق أولا، حتى إذا وصل بعده هبط أقصى الحنك الأعلى فيسدّ بهبوطه فتحة الفم ويتسرب الهواء من التّجويف الأنفي محدثا في مروره نوعا من الحفيف لا يكاد يسمع[52].

وعليه فإنّ النّون من أكثر الأصوات العربية تأثرا بما يجاورها، ولهذا تعرضت لظواهر صوتية مختلفة، كالإظهار والإدغام والقلب والإخفاء[53]. والمقام هنا لا يتّسع لذكرها، وهي كثيرة

---

[49]- شرح المفصل: 46/10 و47.

[50] - ينظر العربية ليوهان فك: 111.

[51] - سورة الكهف: 36.

[52] - ينظر الأصوات اللغوية: 68.

[53]- ينظر الإتحاف: 46، والتيسير: 44، وشرح الشاطبية: 116.

الشيوع في العربية، والصوت اللغوي إذا شاع استعماله في الكلام، كان عرضة لظواهر تركيبية متنوعة تعتريه كالإبدال والإدغام، فهو يخضع لتغييرات تباينية تضبط وظيفته التشكيلية.

وما يهمنا هنا إبدال النون الساكنة عند مجاورتها لبعض الأصوات مثل الراء: حيث أبدلت واختفت مع بقاء الغّنة وأدغمت فيها وهذا يحدث خاصة في قراءة نافع[54]. وبإبدالها وإدغامها انسجم الصوتان وزال التنافر وحصلت المشاكلة بينهما.

وتحدث هذه التغييرات، أو هذا الإبدال مع أصوات تشبه النون، وهي أصوات ستّة: النّون والميم والراء واللام والياء والواو، والنّماذج الواردة في السورة كثيرة، نحو قوله عزّ وجلّ: "ألن تجعل"[55] وقوله: "ومن يهد"[56] وقوله أيضا: "وقال قائل منهم"[57].

الحذف

وللعربية وسيلة أخرى للتخلص من أعباء المركبات الصوتية الثقيلة، فنجدها تلجأ إلى إجراء بعض التغييرات الصوتية لرفع هذا الثقل، كالحذف. والحذف في كلام العرب على ضربين: أحدهما عن علة فهو ما وجدت فيه كقولهم: يعد في يوعد الأصلية بحذف فاء الفعل والآخر عن استخفاف فلا يسوغ قياسه[58].

والنوع الثاني هروبا من التضعيف لجئوا إلى الحذف استخفافا، وكان الأجدر بهم إبدال أحد المثلين، لأنه حسب رأي ابن جنّي: "أحسن وأسوغ، لأنه أقل فحشا من الحذف وأقرب"[59].

وتميل العربية إلى التخلص من توالي المقاطع المتماثلة فتحذف واحدا منها، والمقاطع المتماثلة هنا، ما يشمل المقاطع ذات الأصوات الصامتة المتماثلة أو المتقاربة في المخارج، ويحدث ذلك في

[54] - ينظر الإتحاف: 47.

[55] - سورة الكهف: 48.

[56]- سورة الكهف: 17.

[57]- سورة الكهف: 19.

[58] - ينظر شرح الملوكي في التصريف: 333.

[59] - ينظر الخصائص: 19/3.

أول الكلمة، أو في وسطها أو في آخرها كما أنّ العربية تميل كذلك أحيانا إلى التخلص من توالي الأصوات المتماثلة[60].

ويعد بعض المستشرقين هذه الظاهرة من الترخيم، إذ يقول أحدهم: "ومن الترخيم ما هو جنس من التخالف، وهو حذف أحد المقطعين المتتالين، أولهما حرفان مثلان أو شبهان". وأمثال ذلك في القرآن عديدة، نحو: (يقتلوني) بدلا من (يقتلونني)، واسطال بدلا من استطال، واستطاع بدلا من استطاع[61].

ومن أمثلة الحذف في السورة الفعل: استطاع، ومضارعه في قوله تعالى: "فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا"[62]، وقوله تعالى: "ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا"[63].

يقول ابن السكيت: "ويقال: ما أستطيع، وما أسطيع، وما أستيع، بمعنى واحد"[64]. فالصيغة (اسطاعوا) وردت بحذف التاء للخفة، لأن الثاء قريبة المخرج من الطاء، وقرئ: (فما اصطاعوا) بقلب السين صادا، وأمّا من قرأ بإدغام التاء في الطاء فملاق بين ساكنين على غير المد"[65]، وقال بعضهم استاع بحذف الطاء، وقال بعضهم: أسطاع يسطيع، "فجعلها من القطع، كأنّها أطاع يطيع، فجعل السين عوضا من إسكان الياء"[66]، وقرأها نافع بالتخفيف والباقون أيضا ما عدا حمزة الذي شدّد الطاء[67].

والظاهر أنّ سبب حذف التاء من الفعل (استطاع) هو التقاء التاء المنفتحة بالطاء المطبقة القريبة من مخرجها، وهي وسيلة للهروب من ثقل اجتماع صوتين متنافرين، ونتيجة لنزعة اللسان العربي نحو التسهيل والتيسير والاقتصاد في الجهد العضلي.

---

[60] - ينظر بحوث ومقالات في اللغة: 27.

[61] - التطور النحوي: 70، وينظر التكملة: 209.

[62] - سورة الكهف: 97.

[63] - سورة الكهف: 82.

[64] - ينظر بحوث ومقالات في اللغة: 47، نقلا عن القلب والإبدال: 46.

[65] - الكشاف: 402/2.

[66] - ينظر معاني القرآن للأخفش: 399/2.

[67] - ينظر التيسير: 119، وشرح الشاطبية: 284.

هذه هي معظم الظواهر التركيبية التي تعتري الأصوات في السياق، وقد لخص جلال الدّين السّيوطي كلّ هذه الحالات، فقال: "اجتماع الأمثال مكروه ولذلك يفر منه إلى القلب أو الحذف أو الفصل، فمن الأوّل قالوا: في دهدهت الحجر، دهيت، قلبوا الهاء الأخيرة ياء لذلك. وقال الخليل: أصل (مهما) الشّرطية (ماما) قلبوا الألف الأولى هاء لاستقباح التكرير.... وكذلك دينار وديباج وقيراط وديماس وديوان، أصلها دنّار ودبّاج وقرّاط، قلب أحد حرفي التضعيف ياء لذلك، ولبّى أصله لبّب، وقلبت الباء الثانية، التي هي اللاّم ياء، هربا من التضعيف، فصار لبّى، ثم أبدلت الياء ألفا، لتحركها وانفتاح ما قبلها، فصار: لبى ومن الثاني حذف أحد مثلي ظللت ومسست وأحسست، فقالوا: ظلت، ومست وأحست..."[68].

وفي هذه القول إشارة واضحة للظواهر الصوتية من مماثلة ومخالفة وإبدال وحذف إلى غير ذلك.

References

[1] Al’bdāl fī al-lughah al-‘Arabīyah lmwlāy ‘Abd al-Ḥafīẓ Ṭālibī : 305 (Risālat mājistīr).
[2] Adab al-Kātib li-Ibn Qutaybah : 376, taḥqīq : Muḥammad Muḥyī al-Dīn ‘Abd al-Ḥamīd, Dār al-Ma‘rifah – Lubnān.
[3] Al-Ashbāh wa-al-naẓā’ir : 1/18, Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah byrwt-Lubnān (D. Ṭ).
[4] Al-Aṣwāt al-lughawīyah li-‘Abd al-Qādir ‘Abd al-Jalīl.
[5] Al-‘Arabīyah lywhān Fakk.
[6] ‘Ilm al-ṣarf al-ṣawtī li-‘Abd al-Qādir ‘Abd al-Jalīl.
[7] Ma‘ānī al-Qur’ān ll’khfsh

[68] - الأشباه والنظائر: 18/1، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان (د.ط).